

أثر التنوع اللغوي في بلورة الوعي الثقافي المتعدد لدى المجتمع الواحد

The impact of linguistic diversity on the development of multiple cultural awareness in one community

د. وفاء مناصري*

تاريخ الاستلام: 2021/04/16 / تاريخ القبول: 2021/04/26

Abstract: Linguistic diversity plays its successful role in developing multiple cultural awareness among the members of the same community unless it is related to the perils of bilingualism that reject the centralization of the original language and cause tension in the unity of the self and the identity of man. The other is in the context of serving the original language and developing cultural bonds between peoples and nations, thus creating a responsible human consciousness towards the centrality of the mother tongue, preserving the self from the pitfalls of dispersion and disintegration and preserving its correct human and international position.

Keywords: diversity; difference; language; other; origin.

1. مقدمة: يتأتى رهان الوعي الثقافي المتعدد لدى المجتمع الواحد، بوصفه واقعا مثبتا من أثر مجمل الجهود المبذولة في تعزيز التعايش اللغوي ضمن بوتقة من الوعي بمركزية وريادة اللغة الأم سواء أكانت العربية أم المازيغية أم هما معا، في مقابل احترام استعمال الفرنسية أو الإنجليزية

ملخص: يؤدي التنوع اللغوي دوره الناجح في تنمية الوعي الثقافي المتعدد، لدى أبناء المجتمع الواحد ما لم يكن مرتبطا بمهالك الثنائية اللغوية المنتفية لمركزية اللغة الأم، والفاعلة في توتير معالم وحدة الذات وهوية الإنسان، وعليه فإن مشروعية التنوع اللغوي تتولد من رحابة الاتساع المعرفي القاضي بمحورية اللغة الأم ومشروعية تعلم لغات الأخرى في سياق خدمة اللغة الأصل وتنمية أواصر التواصل الثقافي بين الشعوب والأمم بذا يتأتى تكوين وعي إنساني مسؤول اتجاه مركزية اللغة الأم صونا للذات من مزالق التشتت والتفكك وحفظا لتموقعها الصحيح إنسانيا ودوليا.

كلمات مفتاحية: التنوع؛ الاختلاف؛ اللغة؛

الأخر؛ الأصل.

*المركز الجامعي عبد الحفيظ بوصوف ميلة، الجزائر
(menasriwafaa@yahoo.fr) (المؤلف المرسل)

محليا، بأمر حرج يعتاص تشخيصه نظريا نتيجة ذلك الاحتدام اللغوي بين الفرنسية والعربية أو الفرنسية والمازيغية، إذا ما سلمنا الأمر بأن العربية والمازيغية هما لغة المجتمع الواحد تتافسهما الفرنسية على عتبة الثنائية اللغوية التي يقصد بها "وجود لغتين متنافستين في الاستعمال تتمتعان بمنزلة واحدة من حيث الكتابة الرسمية والاستعمال الرسمي" (خليل، 2010). على إثر ذلك يجد المتتبع لهذه الظاهرة أن الثنائية اللغوية تخلق نوعا من التفكك في المجتمع كما تطمس هويته، وبالتالي تهشم وحدة المجتمع مدنيا ووطنيا، لأنها ترسخ في ذات الفرد اللااستقرار اللغوي والوطني والديني والنفسي... إلخ.

بذا نذهب إلى القول إن الثنائية اللغوية تخل بالنظام العام لوحدة المجتمع، وتربك مقومات وثوابت بناء الذات، إذ تفرز لدى الحامل لها شعورا متناقضا مميذا، بين لغة ليست من هويته، وهوية ليست من لغته في شيء، فيضيع بين مزالق اللامنتميين الإنسان السوي الفاعل في تطوير مجتمعه والبناني لآفاق أمته، على إثر ذلك تتفرخ بيوض الاغتراب وتتنامى مآسي اللغة الأم على عتبات التعدد الثقافي السلبي المنتصر لتقديس الآخر وتعظيم ثقافته إلى الحد الذي يكفل للمجتمع كل مقومات الانهيار علما أن مركزية اللغة الأم هي موطن ومستقر معالم الذات السوية وفي رحاب هذا الطرح نستحضر مقولة هيدجر الشهيرة "إن لغتي هي مسكني، وهي موطني، ومستقري، وهي حدود عالمي الحميم ومعالمه

ضمن الإطار الذي لا ينتفي لمركزية اللغة الأم (اللسان) ولا ينتقص من هيبتها وريادتها، وكذا دون الولوج في طرح الأفكار المتعصبة والمتطرفة لاستعمال دون آخر، إذ "ينبغي التأكيد على أن الإيمان بالدين أو اللغة أو الفكر لحضارة ما ليس فيه ما يعاب، ولا يمنع أن يكون لدى الإنسان مثل ما لدى غيره من قيم ومبادئ وفكر، أما التعصب فهو تجاوز ذلك إلى الإيمان بضرورة هدم الآخر، بوسيلة ما استهانة بقيمه ومبادئه وثقافته" (عفيفي، د.ت) إذ إن المجتمع الذي يجيد لغة الآخر دون اللغة الأم قد يختل نظامه وترزح هويته تحت هيمنة الآخر المغيب جسدا وأرضا والحاضر ثقافيا، عكس المجتمع الذي يجيد ويعمم ويتشبث بلغته الأم محترما ومستوعبا لغات الآخر اللامنتمي إليه جغرافيا وجسديا، الأمر الذي يخلق لدى النوع الأخير من المجتمعات ثقافة الاختلاف واحترام الآخر، كما يسهم في إرساء أسس الاستقرار ضمن جميع المجالات الفاعلة في ترصيص بنى المجتمع.

على إثر ذلك يطرح الإشكال الآتي: كيف يتأتى لنا بناء مجتمع واحد متعدد مختلف يسوده التعايش والاستقرار؟

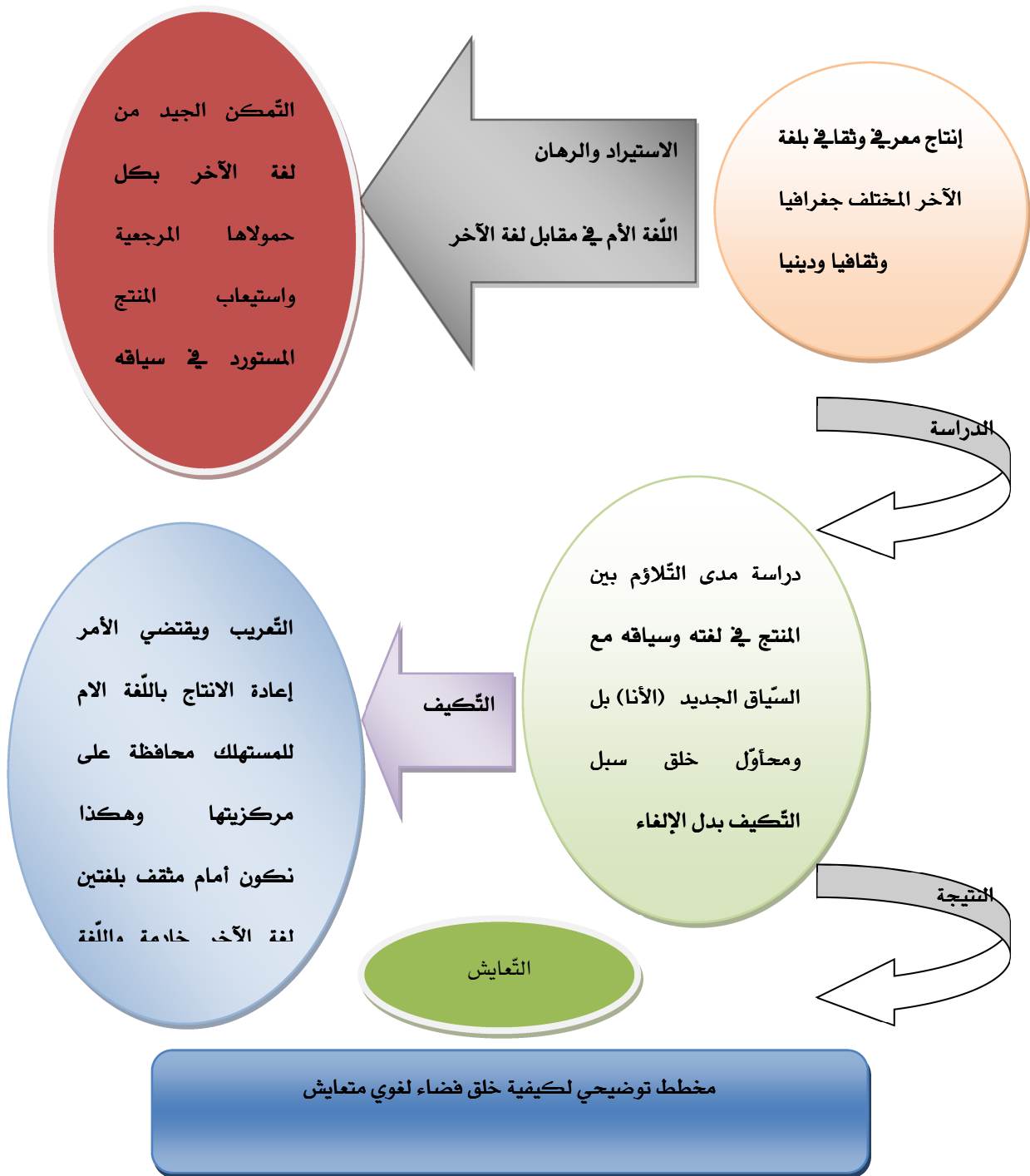
إن الإجابة على هذا الإشكال وما يكتننه من تساؤلات يقتضى منا بداية الوقوف على مرتكز المشكل لضياع الفهم الصحيح لقضية التعايش اللغوي، الفاعل في بناء مجتمع متعدد ثقافيا في الجزائر، إذ إن الباحث في هذا المجال كثيرا ما يصطدم، أثناء تقفية لحيثيات واقع اللغة العربية

وتضاريسه، ومن نوافذها وبعيونها أنظر إلى بقية أرجاء الكون الفسيح" (الجمعاوي، 2013) يتراءى لنا من خلال هذا المؤدى البعد الأنطولوجي للغة وأهميتها في تحقيق الاستقرار والوعي لدى المجتمع.

وعليه فالثنائية اللغوية تعني "ثنائية الثقافة، يعيش صاحبها في صراع نفسي قاس، ناتج عن اضطراب القيم والتقاليد والعادات والمعتقدات، فلا يستطيع تحديد ما هو مباح وما هو ممنوع، ما هو مقبول لدى الجمهور وما هو غير مقبول، وما يحمد على فعله وما يذم عليه، يعيش بمعيارين لا يستطيع تحديد أيهما يصلح هنا وأيها يصلح هناك، إنه يعيش ثقافة مضطربة غير واضحة الملامح والأبعاد، إنها مزيج غامض من الأفكار والمعتقدات تخلق منه شخصا بلا هوية ثقافية، هذا ما يجعله غير قادر على تحديد انتمائه الثقافي" (كايد محمود، 2002)، وعليه نلاحظ أن عدم حفظ قداسة اللغة الأم ضمن أطرها المطلوبة يخلّ بنظام المجتمع، ويفرز نوعا من الاستيعاب المريض لمفهوم التعايش اللغوي والتعدد الثقافي، ذلك لأن تحقيق التعايش لا يكون إلا تحت سلطة ومركزية اللغة الأم مع الدراية الواسعة بلغة الآخر (الفرنسية أو الإنجليزية) بكل حمولتها الثقافية واستعمالاتها العلمية والتكنولوجية، وذلك صونا لمركزية الذات عربيا وتموقعها الصحيح إنسانيا وعالميا، وهنا قد يتبلور تساؤل ضمنى كيف يتأتى حفظ التعايش اللغوي بين العربية والفرنسية أو العربية والإنجليزية مع الحفاظ على مركزية

العربية دون إلغاء الآخر في مجال التناقص والتبادل المعرفي والعلمي؟

عند هذا الحد من التساؤل تتطرح حلول التعريب في مقابل هيمنة لغات الآخر وسيطرتها على سوق الإنتاج في جميع المجالات دوليا حتى ونحن نسلم الأمر أن ".. التعريب لا يهدف بالضرورة إلى الإحلال الشامل للغة العربية محل اللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية في جميع الوظائف والقطاعات وإذا كانت عولمة المعلومات وتدويل الاقتصاد وسقوط الحدود الثقافية والاقتصادية (بفضل البارابول والانترنت على الخصوص) أصبحت تفرض تبني التعدد اللغوي والتعدد الثقافي، فإن برنامج التعريب يظل واردا أكثر من أي وقت مضى. فالتعريب هو أولا هو خدمة اللغة العربية من الداخل، (على مستوى نسقها وعلى مستوى إنتاج الأدوات التي تمكن من تميمتها ونشرها) وأيضا إعادة النظر في وضعها في المحيط إزاء اللغات واللهجات الأخرى (في إطار التعدد اللغوي والتعدد اللهجي). وهو اختيار استراتيجي معقول لتمكين اللغة الوطنية الرسمية في محيطها " (الفاسي الفهري، 2003) من هنا نجد أن فعل التعريب ينطوي تحت سياسة الحراك اللغوي المنظم المبرمج لخدمة اللغة الأصل المنتفي لكل مسار عشوائي (جان كافي، 2008) ضار والمخطط الآتي يلخص مؤدى ما تم طرحه:



تبعاً لما أوضحه المخطط السابق الطرح، ينعطف البحث إلى القول بضرورة التعايش اللغوي والتعدد الثقافي بمنأى عن سيطرة لغة الآخر، على استعمال اللغة الأم ميدانيا لا سوريا، فكما نعلم واقعياً لا دستوريا ورسمياً، أن اللغة العربية في الجزائر تشهد تنافساً قوياً من الفرنسية "لأسباب تاريخية معروفة تعود إلى الاحتلال الفرنسي" (أوشيش، 2002) الأمر الذي يستوجب جهداً مكثفاً للقضاء على معالم اللاتناسب بين مقتضى حال اللغة العربية وبين التصريحات الرسمية الداعية لثبيتها رسمياً، عبر التوجه إلى فضاء رحب وهو التعايش اللغوي القاضي بتفعيل مركزية اللغة الأم دون إلغاء لغة الآخر (الفرنسية أو الإنجليزية على وجه الخصوص).

وعليه فإن القول بمركزية اللغة الأم (العربية أو المازينية) هو القول بالمحافظة على ثوابت الهوية الجزائرية للمجتمع الجزائري على مختلف الأصعدة، كما أن الأخذ بمسلك عدم إلغاء لغة الآخر وإعطائها نوعاً من الأهمية التي تحفظ لحاملها البعد التعددي والثقافي لا المركزي اللأغوي للهوية الأصلية، هو قول بالتعايش اللغوي الرحب اللامتعصب واللامتطرف، وكذا الفاعل في تنمية روح الاختلاف والتعدد في الوعي الثقافي لدى المجتمع الواحد.

بالتالي فإن الإيمان بضرورة التنوع اللغوي والتعدد الثقافي تحت أردية ومركزية اللغة الأم، ييسر سبل التعاملات ويدفع بعجلة الأبحاث

خاصة الجامعية منها (أشر، 1995) اتجاه النجاح المتفرد، والتطور المتوالي.

في هذا السياق، تطرح فكره نسبية قوامها "نحن لا نعرف من نكون إلا عندما نعرف من ليس نحن، وذلك يتم غالباً عندما نعرف (نحن ضد من؟)" (هنتجتون، 1999) من ضمن ما يمكن أن يؤول إليه هذا المؤدى، هو أن هوية المجتمع تتصاع طوعاً وكرهاً إلى ما يركزها ويميزها عن غيرها ممن ينافسها ويهددها على الصعيد الواقعي، وبالتالي يفترض أن يكون المجتمع واعياً بمقومات أصالته بقدر يضمن له اكتفاء ذاتياً في تحقيق الوجود المضاد لموجود يهدد بعده الأنطولوجي، على إثر ذلك فإن فكرة (نحن ضد من؟) لا تفرز دلالة سلبية بقدر ما تؤديها إيجابياً ضمن سياق المركز في مقابل الهامش أو المصاحب.

وعليه فإن تنامي وتطور اللغة الأم بالتوازي المستمر مع التطور المعرفي والعلمي، والدراسة المتعددة باللغات الأخرى، ينتج مجتمعا يستوعب مسافة الاختلاف مع الآخر، الأمر الذي يسهم مستقبلاً في بناء نسق اجتماعي متنوع متسق، لا ينال منه الزل ولا يتسرب إليه الخل، من هنا يغدو التنوع اللغوي لدى المجتمع الواحد تنوعاً خادماً لا هادماً لمركزية اللغة الأم، وكذا باناً لآفاق ثقافية متعددة غير متفككة بين مزالق الفهم الخاطئ للتعدد والتنوع، فالواحد المتعدد أسلم وأكثر أماناً من المتعدد المتعدد ذلك لأن "الثقافة واللغة تمثلان عند العديد من الشعوب الهوية الأساس للجماعات

البشرية" (بركة، د ت)، أي معلم الميز والمغايرة الفارق بين مجتمع وآخر وأمة وأخرى، لذلك يعد فعل الترجمة "إغناء للبيان العربي بالطيب من ثمرات اللغات" (تيمور، د ت) وتلاقحا طيبا يخصب فضاء التعايش اللغوي.

في مقابل ذلك، فإن خلو أية اللغة من هجرة الألفاظ الأجنبية إليها يعد ضربا من الوهم المثالي الذي يعتاص أمر تحقيقه، ذلك لأن فعل التواصل بين الشعوب والتبادل المعرفي والعلمي والثقافي سيؤدي حتما إلى ترحال بعض المصطلحات من لغة إلى لغة أخرى ذلك لأن "التأثير والتأثر ظاهرة لا بد منها في التعامل والتعايش بين اللغات، علما بأن التبادل شيء موجود في شتى مجالات الحياة، وعليه فإن التبادل اللغوي عامة دليل على حيويتها ونشاطها ولا خطر أن يحدث أخذ وعطاء بين اللغات في ميادين لغوية اصطلاحية معينة، فهو شيء محمود في مجمله لأنه علامة على التفتح، والألفاظ حسب اللغويين عرضة للتنقل بين لغة وأخرى رغم كل شيء، ويكون هذا الترحال من لغة إلى أخرى، دون خطر حين لا تزيد هجرة الألفاظ عن حدها، ولكن إذا حدث غزو لفظي من لغة على أخرى دقت نواويس الخطر، وأصيبت اللغة المتأثرة، بتخمة لفظية أجنبية، لا تطيق استيعابها كلها" (تومي سيتوا، 2007) وفق هذا المأخذ من الطرح، تقدم اللغة على توجه في غاية من الأهمية، حين تهدي إلى الهيئة التي تحفظ لها موقعها العصري المواكب لمختلف التطورات الحاصلة في جميع المجالات إنسانيا،

ضمن نشاط التبادل المعرفي والعلمي بين الأمم والمجتمعات، دون الإيغال في استلهاهم مصطلحات الآخر إلى الحد الذي يحدث هجنة غير محمودة العواقب لاحقا، ومعنى ذلك ضرورة الأخذ بالتعايش المنتج للتفرد لا الهادم لتعزيز المختلف.

من هنا، نجد أن التعايش اللغوي يحقق مكاسب معرفية على مستوى التوسع العلمي، إذ بفضلله تزدهر الحركة العلمية وينتشر الوعي بضرورة قبول الآخر بمنأى عن كل تعصب فكري هدام، أو تطرف لغوي غير فعال ذلك لأن "حياة اللغة وبقائها سيرة بين الناس، فاعلة فيهم، منفعة بأسئلتهم، ومستجيبة لحاجياتهم، ومسمية أشياءهم وأفكارهم ومعبرة عن كينونتهم مطلقا، مطالب ضرورية بها يتحقق استمرار اللسان وتتأكد قدرة الإنسان على امتلاك العالم على نحو ما. وكل لغة حية لا تنمو بمعزل عن لغات الجوار الحضاري فهي في حوار متصل مع الآخر اللغوي على نحو يحقق إمكان التثاقف، ويضمن التواصل مع الآخر تأثرا وتأثيرا، وتعد الترجمة باعتبارها تجليات التفاعل بين اللغات والتعارف بين الحضارات" (الجمعاوي، 2013) إن عملية التثاقف القائمة بين اللغة الأم ولغة الآخر في سياق محفوف بالتعايش بدل التناظر، من شأنه أن يولد أفضية التعدد الثقافي المنتصر لاستيعاب الآخر بكل حمولاته المعرفية والمرجعية المتضادة شكلا ومضمونا مع متطلبات اللغة الأم ذات المرجعية المختلفة، تحت سلطة الترجمة بوصفها أداة أو وسيلة للربط بين المختلف

والأصل ضمن تشكّل أرحب يحفظ للغة الأم مسافة الأمان بينها وبين المنتج الوارد إليها.

يشري التنوع اللغوي تحت ضوء مركزية اللغة الأم (العربية أو المازيغية في الجزائر)، سبل التعدد الثقافي الفاعل في توجيه الوعي نحو الاختلاف، ويقصد بذلك عدم الانصهار بلغات غير اللغة الأم والاهتمام بهذه اللغات النشطة في المحيط في نفس الوقت استجابة لنداء المركز على المستوى المحلي وموقعها على المستوى الدولي.

يعتاص أمر المحافظة على المركز، والتعايش والتنوع والتعدد في الآن ذاته، اعتياصا شديدا على الفكر المتطرف للآخر أو للمركز، مما يخلق لدى أصحابه نوعا من التوتر اللامبرر اتجاه اللغة الأم رفضا أو قبولا، لذلك فإن خلق سبل الانسجام بين المركز والهامش ينطلق من التوعية التعليمية عبر مختلف الأطوار مع التركيز على ذلك بشكل صارم في الابتدائي بحكم أنها المرحلة الحاسمة في توجيه الطفل مستقبلا.

كما تؤدي مراكز البحث دورا فعالا في ترسيخ البعد الحيوي لفضاء التعايش والتعدد والتنوع، عبر التعريب والترجمة في محاولة منها لخلق أفضية رحبة تخدم اللغة الأم في سياق معرفي ولغوي متنوع.

خاتمة: انتهى البحث في مجال "أثر التنوع اللغوي في بلورة الوعي الثقافي المتعدد لدى المجتمع الواحد" إلى خاتمة تستعرض أهم النتائج، بعد لأي ومد وجز بين هذا المؤدى وما تعالق به من

طروحات وشروحات اعتاص أمر الإحاطة بها نظرا لتشعباتها المعقدة، على النحو الآتي:

- إن الأخذ بمقولة مركزية اللغة الأم بمعزل عن أسيقة الحوار مع لغة الآخر المختلف، من شأنه أن يفجر بؤر توتر متعصبة ومتطرفة تحول دون مواكبة هذه اللغة لمتغيرات العصر وتطوراتها علميا وإنسانيا؛

- في مقابل ذلك، فإن الإيغال في توخي وتوسل لغة الآخر على عتبة الثنائية اللغوية، يهشم علائق الثقة بين الإنسان وهويته الأصل أو ما يحقق وجوده الفعلي ضمن موقع جغرافي وإنساني مختلف؛

- تعد الترجمة أنجح مجال يفعل أوأصر الثقاف بين اللغة الأم وما يجاورها من لغات، دون المساس بمركزيتها الفاعلة في ترسيخ ثوابت ومقومات المجتمع على مختلف الأصعدة محليا ودوليا؛

- يتنامى التعايش اللغوي المبلور لتعدد الوعي الثقافي المختلف بشكل سليم لا يشوبه الخل والضلال، ضمن سياق معرفي قوي يؤمن للحامل له حفظ اللغة الأم من الضياع، ويولد لديه الشعور بالانتماء والوحدة وكذا اللاتهميش الذي توجبه مزالق الانتصار للغة الآخر، دون اللغة الأم بضرب من الدهشة والانبهار اللذين سرعان ما يتسلل إليهما الشعور بالخيبة اتجاه الذات وهوية الشخص، وبالتالي تفكك المجتمع، وعليه فإن تلافي هذا الضرب من الانهيار يستوجب علينا الوعي بضرورة مركزية اللغة الأم في سياق

- محفوظ بلغات مصاحبة تؤديها الترجمة والدراية الواسعة بشوارد حيثياتها؛
- يتأتى فعل التعايش اللغوي بين العربية والمزيغية والفرنسية في الجزائر من لدن وعي ثقافي متعدد يؤمن بأن (العربية والمزيغية لغة أم) تقتضيان معا حوارا مختلفا مع الفرنسية لا يشوبه الانبهار والدهشة، بل في إطار سلمي له أهداف علمية لا سياسية من شأنها الإخلال بالنظام العام لمقومات الهوية الجزائرية عربيا ودينيا؛
- تحتاج الجزائر حاليا لخلق مراكز بحث متعددة خاصة بالترجمة في محاولة منها لتيسير سبل الحفاظ على اللغة الأم بمصاحبة لغات مختلفة، تبعا لما تمليه مقتضيات العصر وممكناته.
- المصادر والمراجع:**
1. إبراهيم خليل. (2010). مدخل إلى علم اللغة. عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع.
 2. إبراهيم كايد محمود. (مارس، 2002). العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية. مجلة العلوم الإنسانية والإدارية، 03(01)، صفحة 42.
 3. أحمد عفيفي. (د.ت). اللغة وصراع الحضارات. القاهرة: كتب عربية.
 4. أمينة تومي سيتوا. (2007). مظاهر التداخل اللغوي في أخبار التلفزة الجزائرية، تأثير اللغة الفرنسية في اللغة العربية. رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، الجزائر.
 5. أنور الجمعاوي. (2013). تعريب المصطلح التقني، قراءة نقدية في المنجز المعجمي العربي المعاصر. تأليف اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكالية التعليم والترجمة والمصطلح (المجلد 01، صفحة 167). بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
 6. بسام بركة. (د.ت). الترجمة إلى العربية دورها في تعزيز الثقافة وبناء الهوية. تأليف اللغة والهوية في الوطن العربي، إشكالية التعليم والترجمة والمصطلح (صفحة 32).
 7. بيار أشر. (1995). سوسيولوجيا اللغة. بيروت، لبنان: عويدات.
 8. صموئيل هنتجتون. (1999). صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي (المجلد 02). مكتبة نور الإلكترونية.
 9. عبد القادر الفاسي الفهري. (2003). اللغة والبيئة. الرياض، المغرب: منشورات الزّمن.
 10. كريمة أوشيش. (2002). التداخل اللغوي في اللغة العربية. 61. الجزائر، الجزائر: المدرسة العليا للأساتذة والعلوم الإنسانية.
 11. لويس جان كالفي. (2008). حرب اللغات والسياسات اللغوية (المجلد 01). بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
 12. محمد تيمور. (د.ت). مشكلات اللغة العربية. مصر: مكتبة الآداب ومطبعها المطبعة النموذجية.